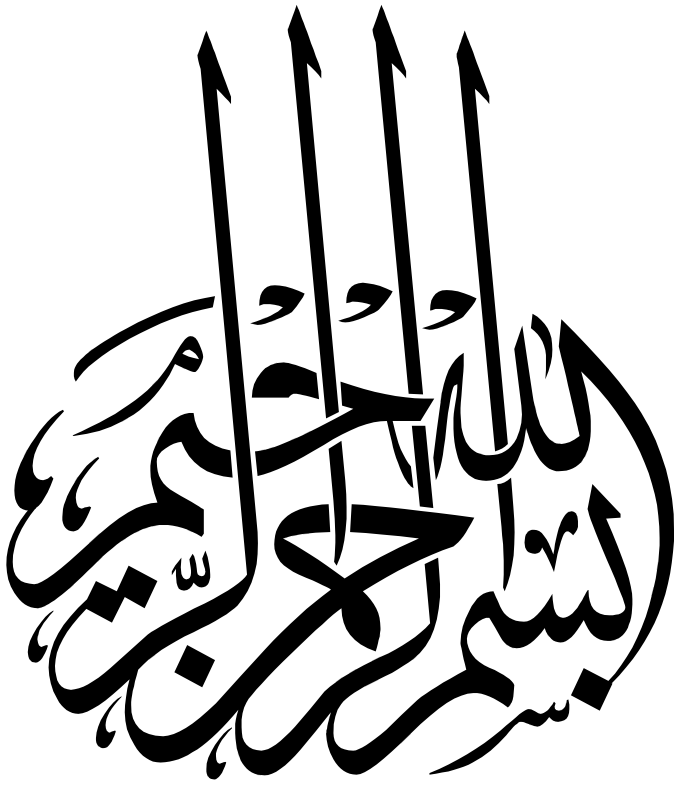
بسم الله الرحمن الرحيم

شرح كتاب

الفتن وأشراط الساعة

من صحيح مسلم

◈◈◈

باب في الفتنة التي تموج كموج البحر

بسم الله الرحمن الرحيم

((بَابٌ فِي الْفِتْنَةِ الَّتِي تَمُوجُ كَمَوْجِ الْبَحْرِ:

عَنْ حُذَيْفَةَ ﷺ، قَالَ: "كُنَّا عِنْدَ عُمَرَ، فَقَالَ: أَيُّكُمْ يَحْفَظُ حَدِيثَ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمْ فِي الْفِتْنَةِ كَمَا قَالَ؟ قَالَ: فَقُلْتُ: أَنَا، قَالَ: إِنَّكَ لَجَرِيءٌ! وَكَيْفَ قَالَ؟ قَالَ: قُلْتُ سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمْ يَقُولُ: «فِتْنَةُ الرَّجُلِ فِي أَهْلِهِ، وَمَالِهِ، وَنَفْسِهِ، وَوَلَدِهِ، وَجَارِهِ، يُكَفِّرُهَا: الصِّيَامُ وَالصَّلاَةُ، وَالصَّدَقَةُ، وَالأَمْرُ بِالْمَعْرُوفِ، وَالنَّهْيُ عَنِ الْمُنْكَرِ». فَقَالَ عُمَرُ ﷺ: لَيْسَ هَذَا أُرِيدُ؛ إِنَّمَا أُرِيدُ الَّتِي تَمُوجُ كَمَوْجِ الْبَحْرِ. قَالَ: فَقُلْتُ: مَا لَكَ وَلَهَا يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ؟ إِنَّ بَيْنَكَ وَبَيْنَهَا بَابًا مُغْلَقًا، قَالَ: أَفَيُكْسَرُ الْبَابُ أَمْ يُفْتَحُ؟ قَالَ: قُلْتُ: لاَ؛ بَلْ يُكْسَرُ. قَالَ: ذَلِكَ أَحْرَى أَنْ لاَ يُغْلَقَ أَبَدًا. قَالَ: فَقُلْنَا لِحُذَيْفَةَ: هَلْ كَانَ عُمَرُ يَعْلَمُ مَنِ الْبَابُ؟ قَالَ: نَعَمْ، كَمَا يَعْلَمُ أَنَّ دُونَ غَدٍ اللَّيْلَةَ، إِنِّي حَدَّثْتُهُ حَدِيثًا لَيْسَ بِالأَغَالِيطِ. قَالَ: فَهِبْنَا أَنْ نَسْأَلَ حُذَيْفَةَ مَنِ الْبَابُ، فَقُلْنَا لِمَسْرُوقٍ: سَلْهُ، فَسَأَلَهُ، فَقَالَ: عُمَرُ".

عَنْ حُذَيْفَةَ ﷺ، قَالَ: قَالَ عُمَرُ: مَنْ يُحَدِّثُنَا عَنِ الْفِتْنَةِ؟ وَاقْتَصَّ الْحَدِيثَ، بِنَحْوِ حَدِيثِهِمْ))

حذيفة ﷺ -كما قدّمنا؛ هو صاحب السِّر، وهو أعلم الصحابة بالفتن- كان في مجلسٍ من مجالس عمر ﷺ، فقال عمر ﷺ مخاطبًا الصحابة: أيُّكم يحفظ حديث رسول الله-صلى الله عليه وسلم- في الفتنة؟ ما الدليل أنّ الخطاب للصحابة؟ الدليل: أنهم هم الذين يُخاطَبون بالسؤال عن حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأنه جاء في روايةٍ أخرى عن حذيفة: أنه قَدِمَ من عند عمر فقال: سأل عمر بالأمس أصحاب محمد: أيُّكم سمع قول رسول الله -صلى الله عليه وسلم- في الفتنة؟

قوله ﷺ لحذيفة: ((إِنَّكَ لَجَرِيءٌ)) وفي رواية قال له: ((إنك عليه لجريء))؛ هذا أيها الإخوة ليس ذمًّا لحذيفة ﷺ؛ وإنما معنى الجملة: إنكَ لشجاعٌ مِقدامٌ على الأمر لا تَهابُه؛ فهو مدحٌ له؛ لأنّ الجراءة في لغة العرب: هي الشجاعة، والجريء: هو الذي لا يهاب؛ المقدام، فعمر ﷺ يمدح حذيفة ﷺ قائلًا له: إنك لمِقدامٌ شجاعٌ لا تهاب.

وقول النبي -صلى الله عليه وسلم-: «فِتْنَةُ الرَّجُلِ فِي أَهْلِهِ، وَمَالِهِ، وَنَفْسِهِ، وَوَلَدِهِ، وَجَارِهِ، يُكَفِّرُهَا: الصِّيَامُ، وَالصَّلاَةُ، وَالصَّدَقَةُ، وَالأَمْرُ، بِالْمَعْرُوفِ، وَالنَّهْىُ عَنِ الْمُنْكَرِ»، تقدَّم معنا -أيها الإخوة- الكلام عن الفتن وأنواعها في المحيا والممات، والمراد بالأهل هنا: الزوجات، لأنه ذكر مع الأهل الأولاد. وخُصّ الرجل بالذِّكر هنا -قال: فتنة الرجل- لأنه في الغالب صاحب الحُكم في داره، وإلا فالنساء شقائق الرجال، وحكم المرأة حكم الرجل؛ تُفتَن في زوجها وولدها ومالها وجيرانها، فليس هذا من باب تخصيص الرجال؛ وإنما من باب ذكر الغالب، الغالب أنّ الرجل هو الذي يكون حَكمًا في داره.

وفتنة الرجل في أهله، وماله، ونفسه، وولده، وجاره؛ أنواع:

وقد تقدّم معنا -يا إخوة- أنّ الإنسان قد يُفتن بولده، وقد يُفتن في ولده، وقد يُفتن من ولده، فهي أنواع؛ منها: فرط محبته لأولاده واشتغاله بهم عن الخير، فقد يشتغل الإنسان بأولاده ويترك الخير، فكم من طالب علمٍ كان مُكبًّا على طلب العلم تزوج فأنجب فاشتغل بأولاده عن طلب العلم! وكم من عابدٍ كان صوّامًا على السنّة قوَّامًا على السنة تزوج فأنجب فاشتغل بأولاده عن هذا الخير! فهم فتنة من هذا الباب.

وقد روى الترمذي وغيره، واللفظ للترمذي، وصححه الألباني؛ قال: "كان النبي -صلى الله عليه وسلم- يَخطبنا؛ إذ جاء الحسن والحسين ﷺ، عليهما قميصان أحمران، يمشيان ويعثران، فنزل رسول الله -صلى الله عليه وسلم- من المنبر، فحملهما ووضعهما بين يديه؛ وقال: «صدق

الله: ﴿ إِنَّمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَأَوۡلَٰدُكُمۡ فِتۡنَةٞ ﴾؛ نظرتُ إلى هذين الصبيين يمشيان ويعثران فلم أصبر حتى قطعتُ حديثي ورفعتهما»، ثم أخذ في الخطبة".

النبي -صلى الله عليه وسلم- كان يخطب خطبة في أصحابه، فجاء ابناه: الحسن والحسين، وهو جدهما -صلى الله عليه وسلم-، وهما صغيران يمشيان ويتعثران، انظروا النبي -صلى الله عليه وسلم- في أمرٍ عظيم؛ يخطب، لكنه رقَّ فنزل وحملهما، وذكر الآية، وفسَّر هذا من الفتنة.

فالولد قد يشغل والده عن الخير؛ لأنّ قلبه يتعلق به، أو لتفريطه بما يلزم من القيام، قد تكون فتنة الولد في تفريط الأب فيما يلزم من القيام بحقوق الأولاد، لأن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: «كلكم راعٍ، وكلكم مسئولٌ عن رعيته»، وثبت عنه في الصحيحين أنه قال: «ما من عبدٍ يسترعيه الله رعيةً يموت يوم يموت وهو غاشٌّ لرعيته؛ إلا حرم الله عليه الجنة»؛ «ما من عبدٍ يسترعيه الله رعية» وهذا يشمل كل من استرعاه الله رعية ومنهم الوالد، «يموت يوم يموت وهو غاشٌّ لرعيته إلا حرم الله عليه الجنة» فهو متوعَّدٌ بهذا الوعيد الشديد -والعياذ بالله-، فقد تكون الفتنة من هذا الباب.

وقد تكون فتنة الرجل بولده بأن يعصي الله عز وجل من أجل ولده، فكم من رجلٍ كان حريصًا على الطاعة، فلمّا أنجب فُتن بأولاده، فجاء بأمورٍ محرَّمة كان يرى أنها محرَّمة؛ من أجل أولاده، إمّا من آلات الملاهي المحرَّمة أو أشرطة الغناء أو نحو ذلك من المحرمات، فيكون الولد فتنةً له.

والفتنة بالأهل -أي بالنساء-: قد تقع بالميل إليهنّ، أو بالميل عنهنّ، قد تقع بالميل إليهن؛ فينشغل الإنسان بهن عن الخيرات، وقد تقع بالميل عنهن؛ إذا تزوج الرجل أكثر من امرأة فيميل إلى واحدةٍ ويدع الأخرى، فهذا فُتن بأهله.

والفتنة بالمال: قد تقع في طريق كسبه، وقد تقع في طريق التصرُّف به؛ بحيث لا يُخرِج حق الله فيه.

والفتنة بالجار: قد تقع بالحسد بين جارين، وقد تقع بالمزاحمة في الحقوق، وقد تقع بإهمال الحقوق، وقد تقع بإهمال الحقوق، وقد تقع بعدم الصبر على أذية الجار.

وليست الفتنة -أيها الإخوة- محصورةً فيما ذكرنا، ولكنها أمثلة.

ولذلك؛ ذكر أهل العلم ضابطًا عظيمًا؛ قالوا: كل ما يَشغل صاحبه عن الله فهو فتنة، فيدخل في ذلك من ذُكر ومَن لم يُذكر.

طبعا أيها الإخوة؛ فتنة المسلم بالولد والأهل والمال والجار قد توقعه في المعاصي وقد لا توقعه، فقد يقع في المعصية، وهذه المعاصي ذنوبٌ يُرجى تكفيرها بالحسنات، كما قال الله عز وجل: ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [هود: ١١٤].

وأمّا تخصيص الصلاة وما ذُكر معها للتكفير دون سائر العبادات؛ ففيه إشارةٌ إلى تعظيم قدرها، لا من أجل نفي التكفير عن غيرها، بل غيرها يُكفِّر أيضًا؛ لكنها خُصَّت لبيان عظيم قدرها، فذكر النبي -صلى الله عليه وسلم- من عبادة الأفعال: الصلاة والصيام، وذكر من عبادة المال: الصدقة، وذكر من عبادة الأقوال: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فهذا يدخل فيه كل عبادة؛ لكن خُصَّت هذه لعظيم قدرها.

طيّب؛ هذا التكفير، بمَ يحصل؟

قال بعض أهل العلم: يحصل بهذه العبادات، فإذا صلى؛ كُفِّرت عنه هذه السيئات، إذا تصدّق؛ كُفّرت عنه هذه السيئات، وهذا الصحيح.

وقال بعض أهل العلم: بالموازنة، ما معنى الموازنة؟ أي أنّ هذه حسنات تَرجِحُ بتلك السيئات؛ مع بقاء تلك السيئات.

فهِمْتم -يا إخوة- الفرق بين القولين؟ القول الأول: معناه أنّ السيئات تُمحى بالصلاة، والصيام، والصدقة.

وقوله ﷺ -أعني عمر ﷺ-: ((أُرِيدُ الَّتِي تَمُوجُ كَمَوْجِ الْبَحْرِ))، والعياذ بالله، أي: تضطرب، ويَدفع بعضها بعضًا، وشبَّهها بموج البحر؛ لشدتها، وكثرتها، وصعوبة النجاة منها، كموج البحر، الإنسان قد يسير في البحر سليمًا لكن يأتيه الموج فيجرفه، ولا يستطيع أن يردّه.

قال: ((فَأَسْكَتَ الْقَوْمَ)) أي صمت القوم؛ لأنهم لم يكونوا يحفظون هذا النوع. تقدم معنا -يا إخوة- أنّ حذيفة ﷺ ذكر أنّ الذين شاركوه في معرفة هذه الفتن قد ماتوا، فسكت القوم لأنه لم يكن منهم مَن يَعلم تلك الفتن.

فقال حذيفة ﷺ لعمر ﷺ: ((مَا لَكَ وَلَهَا يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ؟ إِنَّ بَيْنَكَ وَبَيْنَهَا بَابًا مُغْلَقًا)) فمعنى هذا أنّ حذيفة ﷺ أخبر عمر ﷺ أنَّ الفتن لن تقع في الأمة وعمر ﷺ موجود، فلا يخرج منها شيء في حياة عمر ﷺ، يعني الفتن الكبرى العظمى.

و"الباب" جاء أنه: عمر بن الخطاب ﷺ -كما سيأتي-.

قال: ((أَيُكْسَرُ الْبَابُ أَمْ يُفتَحْ؟))؛ قال بعض أهل العلم: ليَعلم عمر هل هذه الفتن يمكن أن تُغلَق أو لا يمكن؟ لأنه لو قال: يُفتح؛ فهذا يدل على عدم عِظَم الفتنة، ويدل على أنه يمكن أن يُغلق مرة أخرى، لكن إذا قال: "أنه يُكسر"؛ فهذا أولا: يدل على عظم الفتنة وأنها تكون عن مغالَبة، ثم يدل أنها لن تُغلق بعد ذلك أبدًا، فأخبره حذيفة ﷺ أنه يُكسر.

وجاء في بعض الروايات في مسلم في كتاب الإيمان -وقد تقدَّم- قول حذيفة ﷺ: "وحدّثتُه أنّ ذلك الباب: رجلٌ يُقتل أو يموت"، فهو في الكناية صرَّح؛ قال: يُكسر، لكن في التصريح جاء بـ"أو". قال العلماء: قوله: "يُقتل أو يموت"؛

- ♦ إمّا حذيفة ﷺ سمع ذلك من الرسول -صلى الله عليه وسلم- بـ"أو"؛ وهذا مرجوح.
- ♦ أو أنه لم يُرِد أن يُخبر عمر ﷺ أنه يُقتَل، لأنّ عمر ﷺ كان يعلم أنه الباب، فلم يُرِد أن يقول له: إنكَ ستُقتل.

وقال بعض أهل العلم: لا، لكن لعل حذيفة ﷺ لم يكن مأذونًا له في الخبر، فقال: "يُقتل أو يموت"؛ لأنّ الرجل إمّا أن يُقتل وإمّا أن يموت، فذكر ما يمكن أن يقال في هذا الباب.

يقول العلماء: الفتن كالدار، والباب: عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، الفتن محبوسة في دار، والباب عمر، فإذا قُتل عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ خرجت الفتن.

وقول حذيفة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: ((حَدِيثًا لَيْسَ بِالأَغَالِيطِ))؛ الأغاليط: جمع أُغلوطة، وهي التي يُغالَط بها، فمعناه: حدَّثْتُه حديثًا عن النبي -صلى الله عليه وسلم-، ليس هو من أحاديث أهل الكتاب وليس من اجتهادي؛ وإنما حديثٌ محقَّقٌ عن النبي -صلى الله عليه وسلم.

والحاصل أيها الإخوة؛ أنّ الحائل بين الفتن والمسلمين: كان عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ وهو الباب، فما دام حيًّا لا تدخل الفتن العظيمة على المسلمين، فإذا مات دخلت الفتن، وكذا كان، فإنّ أوّل الفتن العظيمة في ديار الإسلام كانت بعد موت عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وهي الفتنة في خروج أولئك القوم عن طاعة عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وفي الحديث يا إخوة؛ أنّ عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَمَنَة للمسلمين من الفتنة، وكذلك أصحاب رسول الله -صلى الله عله وسلم- فإنهم أَمَنَة للناس من الفتنة.

فمَن أراد اليوم الأَمنة من الفتنة: فعليه بمنهج الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ؛ فإنّ صحابة رسول الله -صلى الله عليه وسلم- أَمنَة للأُمَّة.

وقد مات الرسول -صلى الله عليه وسلم- لكن بقيت سُنَّته، فمَن أراد الأَمَنة فعليه بالسنة، والصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ كانوا أَمنة للأمة وماتوا؛ لكن بقيت سيرتهم، فمن أراد الأَمنَة فعليه بمنهج الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ.

روى مسلمٌ في صحيحه، أنّ النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: «النجوم أَمنَةٌ للسماء، فإذا ذهبت النجوم أتى السماء ما توعَد، وأنا أَمنَةٌ لأصحابي، فإذا ذهبتُ أتى أصحابي ما يوعدون، وأصحابي أَمنَةٌ لأمتي، فإذا ذهب أصحابي أتى أمتي ما يوعدون»، فجعل النبي -صلى الله عليه وسلم- نسبة أصحابه إلى الأمة كنسبته لأصحابه، وكنسبة النجوم إلى السماء.

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: "ومن المعلوم أنّ هذا التشبيه -وانتبهوا لهذا يا إخوة- يعطي الأمّة من وجوب اهتداء الأمة بهم ما هو نظيرُ اهتدائهم بنبيِّهم -صلى الله عليه سلم-، ونظير اهتداء أهل الأرض بالنجوم، وأيضًا فإنه جعل بقاءهم بين الأمة أَمَنة لهم وحِرزًا من الشرِّ وأسبابه".

وهذا -يا إخوة- هو الذي يجعل أهل الحق يقولون: إنّ الحق في الأمة هو: بالأخذ بمنهج الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، هذا أحد الأدلة؛ وإلا فالأدلة بحرٌ لا ساحل له.

فإذا أرادَت الأمَّة السلامة والأَمنَة والعزَّة: فعليها أن تتمسك بكتاب الله وسنة رسول الله -صلى الله عليه وسلم- على فَهم الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ؛ فهذا فيه الأَمنَة لهذه الأمة.

والأحاديث المذكورة في هذا الباب من حديث حذيفة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ تتعلّق بإخباره -صلى الله عليه وسلم- عن أمورٍ وقعت بعد وفاته صلى الله عليه وسلم.

((**وعن جُنْدُبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: جِئْتُ يَوْمَ الْجَرَعَةِ، فَإِذَا رَجُلٌ جَالِسٌ، فَقُلْتُ: لَيُهَرَاقَنَّ الْيَوْمَ هَا هُنَا دِمَاءٌ. فَقَالَ ذَاكَ الرَّجُلُ: كَلاَّ وَاللهِ. قُلْتُ: بَلَى وَاللهِ. قَالَ: كَلاَّ وَاللهِ. قُلْتُ: بَلَى وَاللهِ. قَالَ: كَلاَّ وَاللهِ، إِنَّهُ لَحَدِيثُ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمْ حَدَّثَنِيهِ. قُلْتُ: بِئْسَ الْجَلِيسُ لِي أَنْتَ، مُنْذُ الْيَوْمِ تَسْمَعُنِي أُخَالِفُكَ وَقَدْ سَمِعْتَهُ مِنْ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمْ فَلاَ تَنْهَانِي؟! ثُمَّ قُلْتُ: مَا هَذَا الْغَضَبُ؟ فَأَقْبَلْتُ عَلَيْهِ وَأَسْأَلُهُ؛ فَإِذَا الرَّجُلُ حُذَيْفَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ**)).

جندب يحكي أمرًا؛ قال: ((جِئْتُ يَوْمَ الْجَرَعَةِ، فَإِذَا رَجُلٌ جَالِسٌ -لم يعرفه-، فَقُلْتُ: لَيُهَرَاقَنَّ الْيَوْمَ هَا هُنَا دِمَاءٌ. فَقَالَ ذَاكَ الرَّجُلُ: كَلاَّ وَاللهِ -لا يقع-. قُلْتُ: بَلَى وَاللهِ -سيقع-. قَالَ: كَلاَّ وَاللهِ-لا يقع-. قُلْتُ: بَلَى وَاللهِ)) انتبهوا يا إخوة؛ كان جندب يحلف أنه سيقع، وحذيفة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يحلف أنه لن يقع، وكُرّر ذلك، لكن انظروا ماذا وقع؟! ((قَالَ: كَلاَّ وَاللهِ، إِنَّهُ لَحَدِيثُ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمْ حَدَّثَنِيهِ))، هل قال جندب: بلى والله؟ لا! لأنها السنة، والقوم وقَّافون عند السنة، لَمّا كان الأمر إلى الرأي فيما ظهر له والنظر في الأمور كان يُخالِف ويقول: سيقع، لكن لمّا جاءت السنة وقف؛ بل غضب، غضب على هذا الرجل وقال له: ((بِئْسَ الْجَلِيسُ لِي أَنْتَ)) لماذا؟

قال: ((مُنْذُ الْيَوْمِ تَسْمَعُنِي أُخَالِفُكَ- وفي رواية: أحالفك؛ يعني نحلف- وَقَدْ سَمِعْتَهُ مِنْ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم فَلاَ تَنْهَانِي؟!))، قال: ((ثُمَّ قُلْتُ: مَا هَذَا الْغَضَبُ؟)) يعني قلتُ لنفسي: ما هذا الغضب؟ لأنّ الغضب مذموم، وعند الحاكم في المستدرك: (قال لي: ما لَك وللغضب؟) يعنى حذيفة هو الذي قال: ما لكَ وللغضب؟ لا تغضب، قال: فأقبلتُ عليه أسأله؛ فإذا الرجل حذيفة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

الجَرَعَة -يا إخوة-: مكانٌ مُشرِف، قريب من الكوفة. ويوم الجرعة وقع في عام أربعٍ وثلاثين من الهجرة، في زمن عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، حيث تكاتب المنحرفون عن طاعة عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في الأقطار وثاروا على وُلاتهم في الأقطار، وكان أكثرهم في الكوفة، فثاروا على سعيد بن العاص أمير الكوفة لعثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وأرسلوا إلى عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ رُسلًا، نالوا منه ومن أمرائه، وذمّوه، وقدحوا فيه، وذمّوا الأمراء، وطلبوا أن يعزِل عمّاله؛ فثقل الأمر على عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فدعا أمراءه للتشاور، فجاؤوا، منهم: معاوية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وعمرو بن العاص، وسعيد بن العاص.. وغيرهم، فاشْتَوَروا واستقر الرأي على أن يُقر عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أمراءَه في أماكنهم، وأن يتألَّف هؤلاء بالمال، وأن يُوجِّههم إلى الجهاد في الأطراف. فرجع سعيد بن العاص إلى الكوفة، فثار أولئك القوم في الكوفة، ولبسوا أسلحتهم، وقالوا: والله لا يدخل هذا الوالي الكوفة، وطلبوا أميرًا غيره، وكان اجتماعهم بمكانٍ يقال له الجَرَعَة؛ فقيل له: "يوم الجرعة". فوقع هذا الحديث، جندب -رضي الله عنه وأرضاه ورحمه- لمّا رأى أنّ هؤلاء القوم لبسوا السلاح وخرجوا وسعيدٌ قادم؛ قال: سيقع قتال وستهراق الدماء، فحذيفة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عنده علمٌ من رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فقال: كلا والله، لن يقع!، فقال جندب: بلى والله، سيقع! فقال حذيفة: كلا والله، لن يقع!، ثم بيّن حذيفة أنّ ذلك من خبر رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، وقد وقع الأمر كما قال حذيفة، فأحجم سعيد بن العاص عن قتالهم ورجع إلى المدينة وكسر الفتنة، وأرسل عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أميرًا غيره، فانطفأت الفتنة في ذلك الوقت، وإلا فأهل الشرِّ استمروا في شرِّهم، لكن فتنة هذا الأمر انطفأت.

قوله: ((بِئْسَ الْجَلِيسُ لِي أَنْتَ، مُنْذُ الْيَوْم تَسْمَعُنِي أُخَالِفُكَ؟!))؛ يعني أخالفك في هذا الأمر.

وفي رواية: ((أُحَالِفُكَ))؛ أي أُقْسم الأيمان معك، وهذا هو الأقرب؛ لكثرة الحلف فيما بينهما.

وفي هذا الأثر أيها الإخوة؛ بيان أنّ السلف كانوا وقّافين عند النصوص، فلم يكونوا يقدِّمون العواطف ولا الأهواء ولا الآراء؛ بل كانوا يرجعون عن آرائهم إلى النصوص، وهذا هو طريق السلامة. أمّا إذا أخذتْ الأمة طريقًا آخر فكان تقديم الآراء على النصوص فإنّ ذلك سبب فرقةٍ وذلٍّ. وقد وقع كثيرٌ من المتأخرين في عدم الوقوف عند النصوص؛

ففي الأحكام؛ يسمع المسلم النص الصحيح الصريح ويأبى أن يعمل به؛

يسمع الحنفيُّ -مثلا- أنّ النبي -صلى الله عليه وسلم-: كان يرفع يديه عند الركوع وعند الرفع من الركوع وعند القيام من التشهد الأوسط في أحاديث صحاح مثل الشمس، فيقول: لا.. لا، أنا لا أرفع، بل بعضهم يسيء الأدب؛ حتى قال بعضهم: ماذا يريد بالرفع؟ أيريد أن يطير؟!

ويقول -مثلا- المالكي: أنا لا أقبض وأنا قائم قبل الركوع بل أُرسِل فيسمع الحديث في الصحيحين وفي موطأ الإمام مالك: أنّ النبي -صلى الله عليه وسلم- كان يقبض؛ يقول: لا.. لا.

ويأتي الشافعي -مثلًا- ويعلم أنّ النبي -صلى الله عليه وسلم- ما ذبح هديه إلا يوم النحر فيقول: لا، نذبح قبل يوم النحر، مع وضوح النص عنده.

ويأتي الحنبلي -مثلا- ويقول: أنا أقبض على السرة وأنا قائم ويسمع بالنص الصحيح الصريح أنّ النبي -صلى الله عليه وسلم-: كان يضع اليمنى على اليسرى على صدره، ويقول: لا.. لا.

لا شك أنّ هذا ليس من نهج السلف رضي الله عنهم.

وفي العقيدة يسمع الأشعريُّ قول الله عز وجل: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ۝٥﴾ [طه: ٥]، ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ [الملك: ١٦]؛ ويقول: لا، الله في كل مكان، و﴿ٱسۡتَوَىٰ﴾ يعني: استولى! يسمع سؤال النبي -صلى الله عليه وسلم- للجارية: أين الله؟ فيقول: لا يجوز لأحدٍ أن يسأل: أين

الله! كأنه أعلم بالأحكام من رسول الله -صلى الله عليه وسلم-! وتشير الجارية بأصبعها وتقول: في السماء، فيقول: «من أنا؟» فتقول: أنَت رسول الله، صلى الله عليه وسلم، فيقول: «اِعْتقها؛ فإنها مؤمنة»، يأتي الأشعري ويقول: لا! لو كنتُ عندها لقطعتُ أصبعها؛ كيف تشير؟!

في التعامل بين المسلمين كان أحد من لا يعرف حق ولاة الأمر على الرعية؛ ذكرنا له الأحاديث التي في الصحيحين أو في أحدهما من الأمر بالطاعة، وقول النبي -صلى الله عليه وسلم: «سيكون فيكم أمراء، لا يهتدون بهداي، ولا يستنون بسنتي، يقوم فيهم أناسٌ قلوبهم قلوب شياطين في جثمان إنس»، قال حذيفة ﷺ فما تأمرني يا رسول الله إن أدركتُ ذلك؟! قال: «تسمع وتطيع للأمير، وإن ضُرِب ظهرك وأُخِذ مالك» قال: لا.. لا، هذه الأحاديث أنتم جئتم بها من أجل الحكام، قلنا: هذا في الصحيحين يا أخي! قال: وإن كان، لا كرامة لهم.

هذا خللٌ عظيم؛ المؤمن وقَّافٌ عند النصوص، إذا جاءت العاطفة تخالف النص ذبح العاطفة ذبحًا، وسلَّم زمامه لقال الله قال رسوله -صلى الله عليه وسلم-، يضيء حياته كلها بالنصوص، لا يقدِّم على قول الله وعلى قول رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قول أحدٍ.

وقد مرّ معنا أنّ الإمام الزُّهريّ والإمام مالك -رحمهما الله- قد قالا: "إنّ السُّنة سفينة نوح، والدنيا طوفان"، فمن قال -يا إخوة-: سآوي إلى جبلٍ يعصمني من الماء دون السنة غرق ولا شك، أمّا من قال: سمعتُ وأطعتُ؛ سلِم ونجا.

ونحن -يا إخوة- في هذا الزمان بالذات نعيش في طوفانٍ عظيم، والمتكلمون في الدنيا كُثر، تَعمَّم الكثير، وتمشيَخ الكثير، وكلٌّ يقول: إليَّ.. إليَّ فالحَقُّ عندي، والنجاة بيَّنها رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: «فإنّ من يَعِش منكم بعدي فسيرى اختلافًا كثيرًا، فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين، تمسكوا بها، وعَضوا عليها بالنواجذ، وإياكم ومحدثات الأمور؛ فإنّ كل محدَثةٍ بدعة، وكل بدعةٍ ضلالة».

فإذا دُعِيتَ أيْ أُخيَّ إلى حُكمٍ أو فكرٍ أو عقيدةٍ فانْظر إلى المتقدّمين، إلى سلف الأمة؛ فإن كان هذا عندهم فأَنعِم به، وإن لم يكن عندهم فاحْذره؛ فلا خير فيه لك، ولا خير فيه لأهلك، ولا خير فيه لأمتك.

فعلينا -أيها الإخوة- أن نتأدب مع الكتاب والسنة بأدب سلفنا الصالح رضي الله عنهم.

ووالله ثم والله لن يجمع الأمة إلا الكتاب والسنة بعد فضل الله -سبحانه وتعالى-.

إذا عرفنا فضل الأئمة الأربعة، ولهم -وربِّ الكعبة- فضلٌ عظيمٌ على الأمة؛ نعرف فضل الإمام أبي حنيفة النعمان بن ثابت -رضي الله عنه ورحمه-، ونعرف فضل الإمام مالك بن أنس -رضي الله عنه ورحمه-، ونعرف فضل الإمام محمد بن إدريس الشافعي -رضي الله عنه ورحمه-، ونعرف فضل الإمام أحمد بن حنبل -رضي الله عنه ورحمه-، ونأخذ من أقوالهم وأقوال فقهاء الإسلام ما دلَّ عليه الدليل، هنا سنجتمع، أمّا إذا كان كل واحدٍ يقول: أنا على هذا المذهب لا أتركه أبدًا؛ سيترتَّب على ذلك أمور:

- منها: ترك كثيرٍ من النصوص؛ فإنه لم يوجد إمامٌ من أئمة الإسلام جمع النصوص كلها.
- ومنها: افتراق الأمة؛ حتى يقع ما وقع قبل زمنٍ في المسجد الحرام، في أكبر مساجد المسلمين! أربعةُ محاريب، وليس محرابًا واحدًا، أمام الكعبة التي يتجه إليها المسلمون جميعًا! محرابٌ للأحناف، ومحرابٌ للمالكية، ومحرابٌ للشافعية، ومحرابٌ للحنابلة، حتى في صلاتهم أمام بيت ربهم يتفرقون! مع تباغض القلوب -والعياذ بالله-.
- ويقع أيضًا النيل من بقية الأئمة: إما بالحال وإما بالمقال، مثلًا أنا قلت: أنا حنفيٌّ لا أدع الإمام أبي حنيفة رحمه الله أبدًا، معنى ذلك أنّ الإمام مالكا رحمه الله كان مخطئًا في كل شيء، وأنّ الإمام الشافعي كان مخطئًا في كل شيء، وأنّ الإمام أحمد كان مخطئًا في كل شيء، وهذا نيلٌ من هؤلاء الأئمة، ثم يقود الأمر إلى النيل بالمقال.

وهذا لا شك -أيها الإخوة- أن فيه تفريقا للأمة.

أما إذا قلنا: نعرف فضل أئمتنا ونحترمهم وإذا رجَّحنا قولًا غير قول أحد الأئمة فإنا نحفظ لذلك الإمام فضله ونعتقد أنه مأجورٌ وليس مأزورًا؛ اجتمعنا واجتمعت كلمتنا وتقاربت قلوبنا وعرفنا حق أئمتنا، ومن قبل ذلك وهو أعظم من كل هذا: عرفنا حق ربنا وحق رسولنا -صلى الله عليه وسلم-.

وكذا في العقيدة؛ تتَّحدُ كلمتنا وتجتمع على عقيدتنا في ربنا، وعلى عقيدتنا في نبينا صلى الله عليه وسلم، وعلى عقيدتنا في الصحابة ﷺ، وهكذا في كل أمور العقيدة، ولن يكون ذلك إلا بالتسليم للكتاب والسنة، وبه يحصل الحق.

ولذلك يا إخوة؛ من أراد أن يكون داعيةً إلى الحق الذي تنتفع به الأمة وترتفع به الأمة فليتقِّ الله في نفسه، وإيَّاه أن يقول كلمةً واحدةً تُبعِد الأمة عن الكتاب والسنة؛ بل عليه أن يقرِّب الناس من الكتاب والسنة ما استطاع إلى ذلك سبيلًا.

يقول بعض الناس: هؤلاء دعاة فُرقةٍ وتفريقٍ للأمة؛ يقولون: أشاعرة، يقولون: أهل سنة، يفرّقون الأمة، نحن نقول: ما الاجتماع في الأمة؟ أليس الاجتماعُ الاجتماعَ على ما كان عليه النبي -صلى الله عليه وسلم- وأصحابه؟ وإلا كان فرقة؟ إن قيل: كان فرقة؛ فهذه مصيبة! وإن قيل: إنه كان اجتماعًا؛ قلنا: ونحن نقول: إنّ هذا التفرّق الذي حصل مرضٌ أصاب الأمة ونحن يجب أن نكون أطباء لنحاول جاهدين أن يُشرِّفنا الله بِأن نضع في اجتماع الأمة ولو لبِنة واحدة، والله لو سقطت الرقاب من أجل أن يكون الإنسان سببًا في عودة الأمة إلى السُّنة، ولو إلى شيءٍ منها، لَمَا كان ذلك عزيزًا.

وأنتم أيها المبارَكون، يا من اجتمعتم في مسجد رسول الله -صلى الله عليه وسلم-؛ ينبغي لكل واحدٍ منا بحسبه وقدرته أن ينشر هذا الأمر بين من حوله، مُحبِّبًا ومُتلطِّفًا ومُبيِّنًا ومُفصِحًا؛ حتى نكون من دعاة الخير.

واللهُ ناصرٌ دينه بنا أو بغيرنا، لكنّ الخوف علينا، نحن لا نخاف على الدين، الله حفِظ دينه، لكنّ الخوف علينا؛ أن نقصِّر فيما نستطيع فنُسأل بين يدي الله؛ فلا جواب، أو أن نكون سببًا لتخذيل الأمة عن الكتاب والسنة؛ فنُسأل عن ذلك بين يدي الله؛ فماذا نقول؟!

فنسأل الله عز وجل بأسمائه الحسنى وصفاته العلا أن يجمع أمة محمد -صلى الله عليه وسلم- على ما اجتمع عليه الصحابة رضي الله عنهم، وأن يعيد الجميع عوْدًا حميدًا إلى الفهم العظيم فَهم الصحابة رضي الله عنهم، وأن يكفي المسلمين شرور أعدائهم من الشياطين؛ من شياطين الإنس والجن، ممن يتكلمون بلغتنا وممن لا يتكلمون بلغتنا.

ولعلنا نقف في هذا الموطن، لنواصل غدا إن شاء الله عز وجل.